

# علاء الفاسي

## الفكر الثوري

وعيزائف... أو حينما يقول علال مثلا : « يجب أن نحور الفكر من خرافات الماضي ومضلات العصر الحديث » . ان ما يقصد علال أن مضلات العصر الحديث هي كل ما يخالف القضايا السلفية ...

الكاتب لا يهمنه أن يقع في هذا المنطق التافه ما دام هدفه هو أن يثبت أن علال الفاسي سلفي متحجر ، ولو وجد في ما كتبه علال أنه ثوري متفتح على آفاق أوسع مما توحى بعض النظريات التي أصبحت معروفة في أبسط الكتب الايديولوجية .

قد يكون من المهم جدا ، بل ومن المفيد ، أن يرصد باحث نفسه لنقد نظريات مفكر مارس التفكير النظري والعملية من خلال المعاشة اليومية لقضايا الفكر والمجتمع زهاء نصف قرن . عمل كهذا من باحث شاب - فيما يبدو - يدعو الى الاحترام . ولكن من الاساءة للفكر وللبحث ومن عدم احترام الشخص لعمله العلمي أن يلجأ الى أفكار مسبقة يرغب في اثباتها عن طريق منهجية « علمية » في ظاهرها لأنها تستند على المصادر و « تحليل » الكلمات للوصول الى نتائج بادية الزيف عند أي قارئ يمارس قراءة الأبحاث العلمية ، فأحرى عند القراء الذين كان من حظهم أن قرأوا ما كتبه علال الفاسي ، وعرفوا عن طريق قراءتهم أي نماذج المفكرين هو .

وقد امتاز علال الفاسي - كزعيم مفكر قاد الحركة الثورية في المغرب منذ نشأة الوعي عنده - وكان ذلك في وقت مبكر من حياته - حتى آخر لحظة وهو يلفظ نفسه الأخير - بأنه مفكر مناضل تنطبع أفكاره السياسية والاقتصادية والاجتماعية على نضاله التحرري في سبيل بلاده والامة العربية جمعاء ، وينطبع نضاله على أفكاره . فليس هو من المفكرين التجريديين الذين يعيشون الأفكار التي كتبها الآخرون ، وليس هو من المناضلين الذين يعيشون منعزلين عن الحركات الفكرية والعملية والعمالية ، وإنما كان يفكر ويكتب بقدر ما يعمل، ويعمل ويناضل بقدر ما يفكر ويكتب . ولذلك كلما تجد مناضلا من مناضلي العالم الثالث الذين ساهموا في الحركات الثورية - بالنضال العملي بالسلاح ( تأسيس المقاومة وجيش التحرير المغربي والجزائري والمساهمة في تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية ) وفي الوقت نفسه يكتب أزيد من عشرين كتابا في النظريات الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يرى أن بلاده ( الوطن العربي ) يجب أن تحتديها للخروج من أزمة الحاضر والماضي الى آفاق المستقبل . لقد كان علال

خصصت مجلة الآداب عدد مارس الماضي للآداب المغربي الحديث . وقد كان مساهمة مهمة من المجلة العربية الكبرى التي دأبت منذ أزيد من ربع قرن على بعث الصلة القوية العملية بين أقطار الوطن العربي عن طريق الفكر والآداب . وكانت الأعداد الخاصة التي خصصتها للآداب الحديث في بعض الأقطار العربية شاهدا عمليا على الوعي بالمسؤولية الفكرية التي يتحملها الصديق الدكتور سهيل أدريس في الوطن العربي .

ومن بين الأبحاث التي تضمنها العدد الخاص بالآداب المغربي الحديث موضوع « الاستلاب في الفكر السلفي الجديد بالمغرب » وقد خصصه كاتبه السيد عبد الرزاق الدواي للسلفية الجديدة من خلال علال الفاسي .

من خلال مراجع البحث وال فقرات الكثيرة التي نقلها الكاتب من كتب علال الفاسي وعلق عليها بأسهاب يتبين أن الكاتب قرأ بعض كتب علال الفاسي ، أو فقرات مقتضبة منها ، وأن كان يبدو أنه لم يقرأها جميعها لأن كتبها كثيرة لم يرد لها ذكر في القضايا المهمة التي عالجاها علال الفاسي وكانت موضوع مناقشة من السيد الدواي . ومهما يكن ، فإن العودة الى النصوص تشهد بأن الكاتب وفر جهدا لا بأس به للدراسة التي قام بها ، سواء من حيث المراجع التي عاد إليها ، أو من محاولة الاستنتاج - الى درجة التعسف - من أفكار علال الفاسي للرد عليها .

أقول الى درجة التعسف ، لأن البحث امتياز بالابتسار أي أخذ فقرات ، أو جمل محدودة من فقرات طويلة ، للاستشهاد بها على فكرة مسبقة أراد الكاتب أن يثبتها بمنطقه الأسبقى الابتساري ، ولو كلفه ذلك الادعاء أو التفسير الغريب للكلمات أو للخروج عن المنهج العلمي كالقول مثلا : أن علال يقصد بانتصار العقل « العقلية التقليدية » أو القول بأن المبادئ التي يقرها علال ولا يرى فيها الكاتب ما يعارض ، أنها تحتوي على

الفاسي منظراً كبيراً . ولكنه لم يكن يعيش في برج العاجي يكتب ويحلل الكلمات . و « يشققها » على غرار ما يفعل المثسبعون حتى الآن - بعقلية الكتب الصفراء - ولو كانوا من قراء الكتب الحديثة - وانما كان يخرج الى الشوارع لينفذ أفكاره وهو يخطب ويحاضر ويعقد المؤتمرات ويقود المظاهرة ويحاكم ويطارده ويعتقل وينفى ( قضى في المنفى تسع سنوات كاملة في الكابون بأواسط افريقيا ) ويجوب القارات الخمس ويحضر مؤتمرات التحرر العالمي ( باندونج مثلا ) ويتعرض للاغتيال من اليد الحمراء في المغرب وفي عواصم أوروبا ، ويموت وهو يحاور رئيس دولة اجنبية عن قضيتي الصحراء وفلسطين . من هذا المنطلق كان علال الفاسي يفكر . ومن هذا المنطق التحرر كتب كنبه الثائرة المتحررة ، وفي مقدمتها أهم كتاب خطط فيه طريق التحرر السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري للوطن العربي وهو كتاب « النقد الذاتي » .

وقد حاول السيد عبد الرزاق الدواي لاثبات الفكرة المسبقة التي ارادها عن علال الفاسي أن يتجاوز الافكار الاساسية التي طفت بها كتب علال في النظريات الكبرى الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وان يعود بكل فكر علال الى السلفية ، فوضع السلفية المحور الذي تدور حوله أفكار علال الفاسي رغم الخطأ الفادح في فهم الدواي للسلفية عند علال . ومن ثم كان علال بكل فكره التقدمي الثوري منطلقاً من السلفية ويعود اليها . وهذا هو الاستلاب الحقيقي الذي وقع فيه السيد الدواي ، وهو استلاب يعم ما وصل اليه من « نظريات » عن علال الفاسي ، بقدر ما يعم منهجه في البحث والدرس .

ولست أريد أن أناقش الباحث في فكرته « المسبقة » عن علال الفاسي ، ولا في النظريات التي وصل اليها . ولكن أريد فقط أن أتبع بعض الملامح الفكرية لعلال الفاسي .

قبل ذلك أريد أن نتفق على بعض الحقائق :

أولها : علال الفاسي لم يكن ماركسياً . وقد سأله مرة احد طلبته في كلية الحقوق : هل أنت ماركسي ؟ فأجابته : أنا علال الفاسي . فهو معتد بفكره ونظرياته وباستقلالته في كل ما يعتقد من أفكار وما يناضل في سبيله من آراء .

وثانيها : أن علال الفاسي لا يخشى من النظريات المخالفة . ولا يقف عند حد في الاطلاع والمعرفة . ولذلك تجده لا يكاد يؤمن بنظرية أو يمتنع فكرة الا بعد دراسة شاملة لكل النظريات المتفكرة أو المفارقة . فلم يعيش تحت شبح العقدة الفكرية ، وانما يقرأ للاسلاميين والمسيحيين والماركسيين والاشتراكيين ، ويحلل نظرياتهم بعقلية علمية مترفعة ، ولا يبني نظريته الا على أساس من المعرفة المجردة التي لا تعصب فيها ولا جمود ولا جحود .

وثالثها : ان علال الفاسي كان يفرق بين الفكر العلمي المجرد . وبين الفكر « العلمي » الاستعماري . ولذلك تجده يتنكر للافكار التي يشعر بأن الهدف منها تدعيم نظرية استعمارية ، ويدين العلماء الذين عملوا في خدمة الفكر الاستعماري مهما اتسمت نظرياتهم بالطابع العلمي . كما يدين تسرب هذه الافكار الى المثقفين العرب - والمغاربة من بينهم - وذلك هو الذي يسميه : « الاحتلال الفكري » الذي تغفل في نفوس أجيال من قومنا باسم التقدمية والاشتراكية والديمقراطية دون تعمق « لمعاني هذه الكلمات ونفوذ لفحواها » ولذلك فهو لا يدين الثقافة الغربية - كما تصور السيد الدواي - وكيف يدينها وهو الذي عبّ منها حتى الثمالة . ولا تغفل ثقافته الاجنبية عن ثقافته العربية الاسلامية . ومكتبته الحافلة ، بل وكتبه العديدة ومحاضراته خير شاهد . فمن الخطأ الفادح ومن التعسف في الاستنتاج القول بأن علال كان يرى أن البديل لكل ثقافة الغرب هو العودة الى الاصول والتراث ، وأن الخلاص من الغزو الثقافي الغربي يكمن في الاستجابة للدعوة السلفية . كان علال مؤمناً بالانسان ومؤمناً بالعقل ومؤمناً بالعلم . وكان يعتبر ثقافة الغرب سبيلاً لتحرر الفكر ومكسباً من المكتسبات الانسانية الكبيرة . ولكنه لا يقف منها موقف المتعبد الفاقد لشخصيته ، وانما كان يعتبرها جهداً انسانياً يساهم في تطوير الانسان فكراً واقتصادياً واجتماعياً . وقد علقت بهذه الثقافة انحرافات لم يجد اي حرج في التنبيه الى بعضها ، واعتبارها مسؤولة عما اصاب بعض المجتمعات الغربية من اضطرابات اجتماعية واقتصادية تطلبت ثورات للتصحيح في كثير من الاحيان . وبنه - بعقله المتفتح - المجتمعات العربية والاسلامية أن تقع في نفس الأخطاء التي وقعت فيها مجتمعات غربية ، اذا ما هي عانقت هذه المقولات الغربية دون وعي ودون فكر نقدي .

بعد هذه الحقائق التي أرجو ان نتفق عليها ، اعود الى مناقشة بعض الملامح الأساسية في فكر علال الفاسي :

### السلفية :

كان علال الفاسي على وعي كامل بالفكر السلفي كما تمثل عند ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب ، وكما عرفته الثورة الفكرية الاصلاحية على يد جمال الدين ومحمد عبده . وقد بدأت الحركة ، التي تزعمها فيما بعد ، وطنية سلفية تربط بين مقاومة الاستعمار ومقاومة حليفه الفكر الخرافي المااضي الذي يلتصق باسم الدين . والواقع المغربي ، كالواقع العربي ، يؤكد ان الاستعمار كان يستغل هذا الفكر الخرافي لانه حليفه الطبيعي . ولذلك كانت السلفية في المغرب - كالسلفية في الوطن العربي على عهد جمال الدين - حتمية تاريخية عند الذين يناضلون في الواجهتين معا : واجهة الاستعمار ،

وواجهة حليفه الطبيعي وهو الفكر الخرافي المتمثل في بعض المنتسبين الى الدين . فهي اذن « مرحلة » نضالية ، وليست حتى مرحلة فكرية ، ولو ان النضال يعتمد على الفكر عند علال .

الا ان هذه السلفية لم تكن تعني العودة بالمجتمع او الفكر الى الماضي والتشبث بهذا الماضي . وانما كانت تعني تخليص الفكر الديني من خرافية الحاضر للعودة به الى صفاء الماضي حتى لا يكون عرقلة في بناء المستقبل . فهي اذن ثورة على الحاضر من اجل المستقبل لا من اجل الماضي . وهذا ما يوضحه علال الفاسي حينما يقول : « لقد كان ( الكفاح الوطني في المغرب ) في بدايته حركة سلفية . والسلفية تمتاز في عالم الحضارة بالتمرد على الحاضر والاستنجد بالماضي لاكتساب الطاقة الحرارية التي تنقل المجتمع الجامد الى السير نحو مستقبلية يخطها بنفسه من صميم سلفية لا تنتعش الا لتندمج في الصورة الجديدة التي تنعش حضارة ما وتسير بها الى الامام . وكذلك كانت سلفيتنا تمردا على الاستعمار الذي هاجمنا في عقر دارنا واحتقر مقدساتنا ، وقد وجد في بعض ممثلي تلك المقدسات او مدعي تمثيلها أدوات صالحة للاستعمال » ( ١ ) .

السلفية اذن ثورة على الحاضر مستعينة بالماضي لتنظيف للسير بالحركة الحضارية نحو المستقبل .

وقد تسربت الى كلمة السلفية - انطلاقا من المعنى اللغوي - فكرة الماضية . ومن المعنى القاموسي الجامد اخذ الذين يهاجمون السلفية منطلقهم ، متجاهلين انها حركة فكرية تطويرية اتسمت في كثير من مراحلها بالثورية . ولم تكن السلفية طابع هذه المرحلة الا لان الجامدين فكريا المتعاونين مع الاستعمار كانوا يستغلون الفهم المتخلف للدين فيتمسكون به لحماية مصالحهم . فكان لا بد للثورة عليهم ان توضح اولا المفاهيم الحقيقية للدين حتى تكشفهم ، ثم تسير بعد ذلك القافلة الى امام .

والفكر السلفي لعلال الفاسي لم يسر الا من هذا المنطلق الثوري لانه مسلم اولا يؤمن بان دعوة الاسلام حركة دائمة ، والفكر الاسلامي يمنع المسلمين من الانكماش على انفسهم والاستسلام لما فعلته عوامل الانحطاط في مجتمعهم ، بل يدفعهم للاتصال بكل العقول والتنقيب عن كل المعارف ، والتطلع دائما الى كل جديد ( ٢ ) .

### الحركة الوطنية والطابع الديني :

حتمية تاريخية ايضا فرضت نوعا من الارتباط بين الحركة الوطنية والفكر الديني . فقد تعرض المغرب في

تاريخه لهجمات استعمارية من نوع الهجمات الصليبية التي تعرض لها المشرق العربي . وكان ذلك بالاحص منذ سقوط الاندلس . فقد دابت اسبانيا والبرتغال على مهاجمة المغرب بعقلية صليبية دينية منبعثة من فكرة الانتقام مما فعله العرب - والمغاربة في مقدمتهم - الذين فتحوا الاندلس انطلاقا من المغرب . وقد كان الهجوم الصليبي خطيرا مس - معظم الشواطئ المغربية على البحر الابيض والمحيط الاطلسي . وقاوم المغرب هذا الهجوم . وكانت آخر معركة مع البرتغال - وهي التي كان من نصيبها ، في الحلف الاستعماري الصليبي مع اسبانيا . احتلال المغرب - منذ اربعمائة سنة حينما انهزمت البرتغال في معركة وادي المخازن بالقرب من العرائش احدى الموانئ الاطلسية .

الفكرة لم تختف من العقلية الاستعمارية الفرنسية والاسبانية حينما هاجمت المغرب في بداية القرن الحالي . وكانت السياسة البربرية . التي فجرتها الحركة الوطنية التي قادها علال الفاسي سنة ١٩٢٠ هي فصل المناطق التي يسكنها البربر عن المناطق التي يسكنها العرب في الادارة والقضاء والدين . وبدأت حملة صليبية عن طريق الرهبان الفرنسيين في الوسط الاسلامي البربري على الاخص . ولذلك كانت الحركة الوطنية التي ناهضت الاستعمار تدخل في اعتبارها العامل الديني كحتمية فرضها الاستعمار واساليبه .

وكل ما قاله علال الفاسي عن غزو الجيش الفرنسي وغاياته العسكرية والسياسية والدينية صحيح تاريخيا ، ولا نحتاج ان نقيم الدليل عليه . فكتابات الضباط والمؤرخين تشهد بذلك ، كما ان الواقع المعاشي الذي يعرفه المناضلون الذين ناضلوا الاستعمار الفرنسي حتى التصريح الخطير الذي فاه به السيد جورج بيدو وزير خارجية فرنسا يوم ٢٠ اغسطس ( آب ) ١٩٥٢ : « الآن انهزم الهلال مرة اخرى امام الصليب في المغرب والى الابد » . كل ذلك يؤكد الطابع الذي طبع به الاستعمار الفرنسي في المغرب وفي الجزائر كذلك .

ولكن هذا الطابع لم يطبع الحركة الوطنية المغربية الا من الزاوية التي اضطرت فيها ان تقاوم الاستعمار في الساحة التي اختارها . اما آفاق الحركة الوطنية فتمثلها برامجها الحافلة ذات الطابع السياسي والاقتصادي والاجتماعي . واذا عدنا الى وقت مبكر من نضال الحركة التي قادها علال الفاسي ، الى سنة ١٩٣٤ مثلا حينما وضع « برنامج الاصلاحات المغربية » وقدم للحكومة الفرنسية كمطالب تسمى كتلة العمل الوطني لتحقيقها . وبين ايدينا هذا البرنامج ، نجد ان مقدمته تحلل نظام الحماية الفرنسية تحليلا علميا قانونيا . ويستخلص من هذا التحليل ان الحماية اتجهت نحو الحكم المباشر ولم تقم بالتزاماتها القانونية ، وتنتقد المقدمة عدم وجود تخطيط للتجهيز ، وسياسة ضريبية

( ١ ) علال الفاسي : منهج الاستقلالية ، ص ٨ .

( ٢ ) علال الفاسي : النقد الذاتي ص ١٢٧ .

الغاية هي « قيام توازن دقيق بين مختلف القطاعات من جهة وبين أفراد الشعب من جهة أخرى ، كما ان تفكيرنا كله يقوم على اساس قيام تعادل بين انواع الديمقراطية . فنحن نرى ان السياسة وحدها لا تكفي ، كما ان الاقتصادية وحدها لا تكفي ، بل لا بد منهما ومن ديمقراطية اجتماعية - وهي في الحقيقة جزء من الاقتصادية - لاستكمال وسائل التحرر الذي نريده للمواطنين . وحجر الزاوية في هذه التعادلية هي ان خيرات المواطنين يجب ان تكون للمواطنين ... وقد ظهر من تجربة الحماية التي امتدت بعد الاستقلال ان الاساليب الرأسمالية المتبعة لا تسمح حتى بالاحتفاظ بالمستوى الحالي للعيش وللشغل فضلا عن رفعه ... وسيظل الحال على ما هو عليه : فئة قليلة من السكان .. تعيش عيشة الرفاهية والنمو ، بينما يعيش معظم المواطنين على دخل لا يتجاوز الالف فرنك ( سنتيم ) يوميا للأسرة الواحدة ... وما دام غير عادل ان يبقى الغني يتختم بغناه والفقير يئن في فقره ، فمن الواجب البحث عن الطرق المؤدية الى تقارب بين مستويات المعيشة ، وذلك باعادة النظر في توزيع الدخل القومي » (٤) .

ويقول في فصل « تقدم البلاد متوقف على تطور البادية » : « ان قضية الفلاح ليست قضية عون مؤقت ولا ارشاد عابر ، ولكنها قضية عمل ايجابي لاجراجه من البؤس ونقص الشغل واعطائه الارض ووسائل العمل فيها وتنظيمه ورعايته وارشاده ليضاعف عمله ونتاجه ، وليتمتع بما يتمتع به ساكنو المدن من ضوء وماء وعلاجات صحية واسباب وقاية ومساجد ومدارس ومراكز الترفيه وتنظيم الفراغ » (٥) .

ويقول في فصل « الاصلاح الزراعي » : « التعادلية تضمن الاصلاح الزراعي الذي يضمن بدوره تطورا عميقا وسريعا للوضع في البادية ( الريف ) وذلك :

- ١ - بتكبير جماهير الفلاحين من الشغل .
- ٢ - باسترجاع اراضيهم المقتصبة من الاستعمار ومن الفيودالية .
- ٣ - باستهداف زيادة وانتظام الانتاج الفلاحي ورفع مستوى المعيشة لسكان البادية .
- ٤ - باعتبار الملكية اداة انتاج تساعد على توزيع متعادل للدخل القومي .
- ٥ - بضمان تعاون الفلاحين على استغلال الارض في نطاق جماعي تعاوني .

٦ - بتعزيز الاصلاح الزراعي بالتجهيز والقرض . ان هذه الخطوط تمثل فلسفة كاملة لاصلاح زراعي حقيقي ، فهي لا تتحدث عن تحسين حالة بعض السكان أو تفرغ الكلام بتحول زراعي فحسب ، ولكنها

(٤) معركة اليوم والغد ، ص ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٦ .

(٥) نفس المرجع ، ص ١٠٦ .

باهظة تفرض على المواطنين ، وتنتقد اتجاه التجهيز لصالح الاستعمار الاقتصادي والاجتماعي ولصالح الشركات الرأسمالية ، وتنتقد اهمال الميدان العلمي والفكري في تطور الشعب ، وتعزو ذلك لسياسة الميز العنصري التي تكفل للجمالية الفرنسية المدارس والمستشفيات والمحاكم وضمان المصالح المادية والحقوق المدنية والحريات الشخصية والعامية . وتشير المقدمة الى الانظمة والتجهيز والاطارات التي وضعتها الحماية لنظام العدل الخاص بالفرنسيين ، وتظهر المقدمة جانب الميز في التعليم لتوضح اهداف السياسة البربرية في التعليم والقضاء وتمزيق وحدة الامة .

اما الاصلاحات التي تضمنها البرنامج فتتعلق بالتنظيم الديمقراطي للحكم بالغرب ، وبضمان الحريات الشخصية والعامية ، وضمان حقوق الانسان ، والغاء الميز فيما يخص حرية الصحافة والاجتماع وتأسيس الجمعيات والمنظمات السياسية والثقافية والاجتماعية . وتطالب بتنظيم العدل والغاء الميز فيه ، وتهتم الطالب بالتعليم والصحة والشغل والقضاء على استعمار الارض ونزع ملكية المواطنين لصالح المستعمرين ، وتنظيم الميزانية على اساس مصلحة الشعب ... (٣) .

اين هو الطابع الديني في هذا البرنامج الذي وضعته الحركة الوطنية بزعامة علال الفاسي ؟ الذين يقرأون الفقرة ( ١ - ٢ ) من مقال السيد الداوي يتصورون ان الحركة الوطنية مطبوعة بالطابع الديني ، ولا شيء غير الطابع الديني . اما الثورة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي اشرنا الى مبتدئها في سنة ١٩٣٤ والتي تطورت حتى أصبحت « **التعادلية الاقتصادية والاجتماعية** » في سنة ١٩٦٣ فهي ما يطمسه هذا الحكم المتسر الذي صدر عن صاحب « الاستلاب في الفكر السلفي الجديد بالغرب » ، ومن الصعب على الفكر ان يقبل مثل هذه الاحكام « الجاهزة » لانها صادرة عن فكر غير علمي .

الفكر الثوري عند علال الفاسي يهدف الى الثورة الجذرية لتطوير المجتمع اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا . ومذهب التعادلية الذي اعلنه علال سنة ١٩٦٣ وشرحه في مختلف كتبه وتقاريره لمؤتمرات حزب الاستقلال وبالاخص في كتابيه المهمين : « دائما مع الشعب » ، و « معركة اليوم والغد » ، هذا المذهب يهدف بوضوح الى الثورة الجذرية لافاء التفاوت الاجتماعي وتكوين مجتمع بلا طبقات ، وتمكين الطبقات الاكثر فقرا وخاصة العمال والفلاحين من وسائل العمل لانقاذهم من المستوى الذي انحدرت اليه حياتهم في ظل عهدي التخلف والاستعمار .

يقول علال في كتاب « معركة اليوم والغد » وفي فصل « التعادلية أكثر من اشتراكية » ( ص ٩٠ ) :

(٢) عبد الكريم غلاب : تاريخ الحركة الوطنية ، ص ١٥٠ - ١٥٦ .

تؤكد رغبتها في أحداث تغيير عميق وسريع للوضع في البداية « (٦) .

ويقول في كتاب « دائما مع الشعب » : « .. وبهذا نعود الى ما أكدناه منذ سنوات كثيرة من ضرورة ربط السياسة الكمية في الانتاج بسياسة في التوزيع .

– فلا بد من اصلاح زراعي حقيقي .  
– ولا بد من توزيع الاراضي على الفلاحين .  
– ولا بد من تحديد الحد الاقصى للملكية .  
– ولا بد من اعادة النظر في الضغط الضريبي على القطاع الفلاحي بحيث يساهم الفلاحون الكبار في تمويل التنمية « (٧) .

علال الفاسي اذن لا يقتصر على رفع شعار الفاء التفاوت الاجتماعي بين المواطنين ، ولكنه يعمق المذهب بالتطبيق الى جانب النظرية ، وبالاقتراح العملي الى جانب المذهب .

ويمثل هذا الدرس يعمق بحث مشكلة العمال ومشكلة توزيع الدخل القومي ومشكلة انشاء مجتمع بلا طبقات ، لا عن طريق سحق طبقة طبقة ، ولكن عن طريق التنظيم الديمقراطي للمجتمع الذي تختفي فيه الفروق الهائلة بين طبقة وأخرى بوسيلة اساسية هي الفرص المتكافئة والعمل المضمون والكسب المشروع .

بهذه النظريات الثورية الحقيقية يفسر علال التخلف الاجتماعي الناتج اساسا عن التدهور الاقتصادي .

### الفكر الاقتصادي :

يمكن ان نقول : ان علال الفاسي يعتبر التخلف الاقتصادي اساس كل تخلف فكري أو اجتماعي . وكل كتاباته تشير الى هذا التفكير السليم . ولنقرأ هذه الفقرة في فصل « كيف نفكر بالمجتمع » في كتاب « النقد الذاتي » : « ان الحلول التي تعرض عادة لا تتجاوز في نظرنا الحلول السطحية التي لا تقضي على جرثومة الادواء ، وهي في الحقيقة بمثابة المخدرات التي تزيد في اعضاء الداء في الوقت الذي تخفف من حدته . ان ما اعتدنا سماعه في حل مشكلة الفقر هو الدعوة الى الصدقة أو تنظيم الاحسان على ابعد تقدير . ولكن ما قيمة هذا العلاج بالنسبة الى المرض ؟ انه تهدئة وقتية لا تتجاوز ما يحمله اسمها من معنى الاسعاف ... »

« ... انه الفلظ الذي تقع فيه الشعوب التي لا تريد ان تحدث ثورة في تفكيرها الخاص بالفوارق بين الطبقات « (٨) .

وفي هذا الاتجاه يضع علال الفاسي على عادته

(٦) نفس المرجع ، ص ١١١ - ١١٢ . ويراجع أيضا فصل البنائيات الاقتصادية في كتاب « دائما مع الشعب » ، ص ٨٢ وما بعدها .

(٧) « دائما مع الشعب » ، ص ٩١ - ٩٢ .

(٨) النقد الذاتي ، ص ٢٦١ .

تخطيطا لانفاذ المجتمع من التخلف . وقد جاء في هذا التخطيط :

– ان غايتنا الاولى والاخيرة هي تحرير الانسان – سائر أفراد الانسان – من الاستعباد الاقتصادي .

– يجب اعتبار المال وسيلة لا غاية . ولذلك يجب منع الاحتكار وخرن المال والمراعاة به . وفرض الزكوات والضرائب المصلحة لفساد الدخل الفاحش حتى تأخذ الجماعة حظها .

– احترام الملكية على شرط الا تكون سبب تجميد للثروة أو عرقلة للانتاج ولا باعثة على الكسل والعطل الاجتماعي وان لا تتعارض مع حق الملكية العمومية .

– يجب اعتبار العمل ذا قيمة اكثر من قيمة المال .  
– يجب القضاء على كل أنواع الاحتكارات وشركات الضمان والبنوك الخاصة وكل ملكية لا تتفق مع الصالح العام ، وذلك :

\* بتأميم جميع المؤسسات ذات الصبغة العمومية ومصادر الثروة القومية والمرافق العامة .  
\* بتوحيد الانتاج وتنظيم التداول والتوزيع .  
\* بتشجيع التعاون .  
\* بمعاونة الاستثمار الفردي والملكية الخاصة لمصلحة الجماعة .  
\* بالتصاعد في الضرائب .

– اعتبار أراضي الدولة وعقاراتها وأراضي الجيش وأراضي الاوقاف من الاملاك العامة .

– الملكية الزراعية الخاصة يمكن حدها .  
– وضع اقتصاد مصمم للاستفادة من التراث القومي .

– منع تكتلات رؤوس الاموال الكبيرة .  
– اعتبار العامل شريكا في ارباح الاعمال الكبيرة .  
ويوزع الربح بين رب المال وبين العمال .  
– على الدولة أن توفر لكل قادر على الشغل وسيلة العمل (٩) .

بهذا الفكر الثوري المنظم اقتصاديا يفكر علال الفاسي في القضاء على التخلف الاجتماعي والاقتصادي . وليس التخلف الاقتصادي والاجتماعي ناتجا عن الانحراف عن الدين كما توهم السيد الداوي ، الذي اقتطف فقرة من فصل الفكر الاجتماعي تتحدث عن موضوع بعيد عن تفسير التأخر الاجتماعي ، فحاول أن يستدل بها على انها تفسر اسباب التأخر .

ان المشكلة الاقتصادية عند علال الفاسي لا تنشأ من « الندرة » – كما قالها الاقتصاديون عامة – في الارض ، وقالها « ريكاردو » حتى بالنسبة لراس المال ، ان ذلك تهرب من الوجه الواقعي للمشكلة القابل للحل .

(٩) النقد الذاتي ص ٤٠ - ٤٤ طبع في بيروت . ويجب ان نلاحظ ان علال الفاسي كتب هذه الافكار سنة ١٩٤٩ قبل أن تقوم في العالم العربي أي ثورة تقدمية أو مذهب تحرري .

ويدرس غلال الفاسي مدى تدخل الدولة في توجيه الاقتصاد . وهو يقرّ ذلك ويؤيده ويعتبر ان تدخل الدولة في الاقتصاد من أهم المبادئ التي يجب ان تعمل بها الدولة . وبذلك يدين الاتجاه الليبرالي القائم على قانون « دعه يعمل » . وهو يدافع عن التخطيط الاقتصادي على أن يكون التخطيط بعيدا عن النظام الرأسمالي الربوي أو متأثرا بالتوجيهات الاستعمارية . بل انه يدعو الى تخطيط مشترك بين الاقطار الاسلامية « وليس من مانع أن تكون هناك تخطيطات اقليمية لهيئات كل قطر بواجبه ، ولكن بصفة لا تزيد في تكوين الاقليمية الضيقة أو الوطنيات المتعارضة » .

أيض بعد هذا الذي شرحناه من آراء غلال الفاسي ان فكر غلال الفاسي افتقد النظرة الموضوعية والتاريخية الى الاحداث والمشاكل الاجتماعية ، وقلص أزمة المجتمع المغربي في أزمة قيم وانحراف فكري ؟ وانه لا يجد أمام قوة الغرب وتفوقه الا الماضي الذهبي عزاء وملجأ من ثقل الحاضر ومسؤولياته ؟

ان تجاهل تراث غلال الفكري وشمولية تفكيره في مشاكل المجتمع هو الذي يجعل الذين يكتبون عنه انطلاقا من افكار مسبقة ومن فكر محدود يصدرن احكاما قيمة مفرضة وتافهة لا تفيد البحث العلمي في شيء ولا تشرّف عملهم كباحثين . ومن حسن الحظ انها لا ترقى لان تسيء الى غلال الفاسي نفسه ، لانه قادر ميتا - كما كان قادرا حيا - على أن يبلغ أفكاره عن طريق ما كتب ونشر وحاضر .

ويمكن للذين قرأوا مقال السيد الداوي أن يكتشفوا فيه نماذج من لغة « الهجاء » اصطنعها في محاولة يائسة - كما اصطنع الهجاءون القدماء قوالب للغة الهجاء - لتقليص قيمة غلال الفاسي كمفكر . والذين لا يستطيعون أن يجاروا رائدا في ريادة يلجأون احيانا الى لغة الهجاء . واذا كانت مثل هذه اللغة لم تفد القدماء فهي بالاحرى لن تفيد المحدثين ، ولو استعارت مجموعة من الاصطلاحات النقدية والمقولات الاقتصادية والاجتماعية والاحكام المطلقة و « القرارات » التي قد تصدر عن محكمة ، ولكنها لا ترقى لتصدر عن فكر منفتح دارس .

ولذلك لن نغيرها اهتماما في هذا البحث الذي استهدفنا منه انارة الطريق أمام الدارسين الذين يريدون ان يدرسوا مدى ما أسداه غلال الفاسي للفكر التقدمي الثائر في الوطن العربي . والذين قرأوا كتب غلال الفاسي أو بعضها يدركون الآفاق الواسعة التي فتحتها أمام الفكر السياسي والاقتصادي والاجتماعي . ويدركون بالتالي زيف المحاولة التي تحشر غلال في قمع السلفية لتنتقل من ذلك الى تبيان الاستلاب في الفكر السلفي ...

والفرض من ذلك عندهم هو حصر علاجها النسبي في تنمية الانتاج كعملية مقصودة لذاتها . وليفرضي السى وضع النظام الاقتصادي في اطار المشكلة عوضا عن النظام الذي يقضي عليها كما عملت الرأسمالية حين ابرزت الوجه الاسطوري للمشكلة فخيّل لها ان الطبيعة ما دامت بخيلة أو عاجزة عن اشباع حاجات الانسان جميعا فمن الطبيعي أن تنصدم هذه الحاجات وتتعارض وعندئذ لا بد من وضع نظام اقتصادي لينسق الحاجات وليحدد ما يجب اتباعه منها « (١٠) . والرأي عند غلال في المشكلة الاقتصادية هي انها « مسألة العمل للانتاج والعدل في التوزيع » (١١) .

ولعل آراء في وسائل التنمية الاقتصادية . فهو يرى :

- وجوب تنمية الانتاج وجوبا لا يحده الا مصلحة العدل في التوزيع .

- المال مال المجتمع . والفرد انما هو نائب عن المجتمع في استعمال المال للتنمية الاقتصادية .

- يجب احترام مبدأ ملكية الفرد ليسأل كل فرد في الحصة التي بين يديه من مال الجماعة وحق الجماعة فيها .

- يجب انتزاع الارض من صاحبها اذا عطلها وأهملها .

- لا يجوز للدولة ان تقطع الفرد شيئا من مصادر الطبيعة الا بالقدر الذي يتمكن الفرد من استثماره والعمل فيه .

- يدافع عن رأي الاسلام في تحريم الكسب بدون عمل عن طريق تأجير الارض أو المال . وعن رأي الاسلام في تحريم الفائدة والربا بأنواعه . وعن رأي الاسلام في منع كسب المال ووجوب انفاقه وترويجه ، ومنع تكوين الثروة في ايد قليلة .

- لا يجوز استعمال المال لكسب نفوذ سياسي . وله آراء في العمل :

- فهو يعتبره أهم وسائل التنمية ، وهو الاصل لكل تملك صحيح .

- والعمل واجب اجباري لكسب المال حتى يقوم الفرد بواجباته ، وهو حق لكل فرد على الدولة ان تضمنه .

- واذا كان الفرد حرا في اختيار العمل الذي يناسب ذوقه وكفاءته ، فان هذه الحرية تتوقف اذا ما اقتضت المصلحة العامة التعبئة الجماعية لفائدة الدولة ، وتوزيع الاعمال بحسب الممكنات .

- وهو يجيز الاخذ بجميع القوانين الاقتصادية على أن تسري سريانا تلقائيا لا احتكار فيه ولا اضرار بمصلحة الجماعة (١٢) .

(١٠) غلال الفاسي : في المذاهب الاقتصادية ، ص ١٥٤ .

(١١) نفس المصدر ، ص ١٥٥ .

(١٢) في المذاهب الاقتصادية ، ص ١٦٠ - ١٦٥ .